الشعر والغناء

الصوت ، واللحن ، والانشاد ، والترتيل

في الشعر العربي الحديث

بقلم الأستاذ جعفر الخليلي

لقد أصبح الشعر العربي مفهوما منذ وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري التفعيلة وحصر كل الشعر المألوف نظمه في عصره كتابة، أما الصوت ورنينه، ونغماته المودعة في بحوره فلم يأت لنا أحد بمثل منها منقولا بطريقة من الطرق طوال تاريخ نظم الشعر، فلم ندر كيف كانت تلاوة الشعر، وانشاده، ونغماته، باستثناء أنغام (الموشحات) التي جاءتنا عن طريق التواتر اذا صح ذلك.

٢

وكل ما ندريه هو أن الشعر كان ينشد منذ القدم انشادا، والانشاد، لا يجري لغة الا بارتفاع الصوت،، وليس من شك أن للصوت. - اذا ما ارتفع - درجات،، وموازين في الارتفاع لا يمكن أن يكون على سوية واحدة، فكان لابد أن تكون له لحون، ومعنى ذلك أن الشعر لم يُقرأ قراءة مسترسلة مثلما نقرأ فصلا من كتاب، وانما كان ينشد، ويرتل، ويلحن بنبرات، منغمة موسيقية.

يقول ابن رشيق: **« ان صاحب الموسيقى يزعم بأن ألذّ الملاذ كلها هو اللحن» ويقول: «ونحن نعلم أن الأوزان هي قواعد الألحان، وان الأشعار هي معايير الأوتار لا محالة».**

والترتيل لغة، هو تحسين الصوت،، وما هو تحسين الصوت. اذا لم يكن فيه شيىء من التلحين، والغناء، والنغم، وأكبر دليل على أن الشعر كان يتلى في

الجاهلية بالغناء، واللحون الحبيبة الى الاسماع هو قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في كيفية وجوب تلاوة القرآن، فقد جاء عنه.

« إتلوا القرآن بلحون العرب »

ومن هذا يفهم أنه كانت للعرب لحون ولهجات. تظهر على أشعارهم، وكانت أنغام وتراتيل تلازم قصائدهم، ولا شك أن هذه اللحون كانت متنوعة وهي تتغير بتغير بحور الشعر، ومن يدرينا فلربما كان هذا الحداء الذي يحدو به البدو الشعر في البادية اليوم قديم وقد وصل الينا عن طريق التواتر مثلما وصلت أصوات. الموشحات. الأندلسية، وهناك من يقول بهذا ويجزم.

ومن المفروض أن يرتل القرآن ترتيلا يلائم الذوق، وهو دعوة دعا اليها الله في قراءة القرآن لما في الترتيل من نغمات.، ونبرات تجلّي الألفاظ وتكشف عن دقة المعاني التي تتضمنها الآيات، وتنعش النفوس، وتشنف الآذان وكم هو الفرق كبير بين أن تقرأ (الأغنية) مثلا قراءة مرسلة كما تقرأ الكتاب، وبين أن تسمعها من مغنّ أو مغنية ذات صوت رخيم تغنيها بأعذب الألحان، وعلى الأخص اذا كانت كلماتها الشعرية بارعة رائعة، وحينذاك يجسّم الغناء معانيها لك تجسيما رائعا، ولذلك قال الله تعالى في محكم كتابه:

«وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا».

وقال في آية أخرى:

«يأأيها المزمل، قم الليل إلا قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا»، والى ماقبل نصف قرن وأقل من هذا القرن كان الشعر في مدينة النجف بالعراق يرتل ويغنى من فوق المنابر، ولذلك كان الشاعر يعهد بشعره الى من هو معروف برخامة الصوت.، والتغني في التلحين، فيرتله هذا ويلحنه بنغمات تناسب بحر القصيدة، وقد تتبدل هذه الألحان في البحر الواحد في مناسبات أخرى فيسمع السامعون نغمات. جديدة، وأصواتا تكشف عما يتضمن الشعر من المعاني لذلك يقفّي الأدباء بيت الشعر وينطقون بالقافية قبل وصول المنشد

اليها، ثم طغت التلاوة (العادية) المرسلة للشعر، وصار الشاعر هو الذي يتلو شعره بنفسه كما يفعل شعراء العربية في أقطارهم، وبهذا ضاعت مزية الانشاد، والترتيل وما كان يرافق الشعر من عذوبة الغناء، واللحون التي كان لها الفضل الأكبر في تجلية القصيدة وهز المشاعر، والتمتع بعذوبة الشعر معنى ومبنى.

وكم هو مؤسف أن لا تكون هناك وسيلة كوسائل العصر الحاضر لتنقل لنا الألحان، والأصوات.، والأغاني التي كان العرب يتغنون بها في أشعارهم، وكل ما عرفناه أنهم كانوا ينشدون أشعارهم بلحون معينة، ونغمات. خاصة، اقتصرت. معرفة أساليبها وألحانها على أبناء جيلها حتى اذا انطوى الجيل انطون معه تلك الأصوات. والأغاني، وذابت كما تذوب دوائر الماء دائرة بعد أخرى حين تلقي في النهر الحجارة، وكالصدى الذي يخف ترديده حتى لم يعد له أثر في الأذن، أو طابع في الذهن.

ويميز (ماركري بريستول) بين الشعر الماثل للعين مما هو مكتوب، وبين الشعر الماثل للأذن عن طريق الصوت، والنغمة، فتقول: (والشكل المادي «في الشعر» هو المظهر الخارجي الماثل على الورق أمامنا، ولكن الأهم من ذلك بكثير انما هو الجانب الصوتي للشعر سواء ما نسمعه من الغير حين يقرأ علينا الشعر أو ما نسمعه ذهنيا حين نقرأه على أنفسنا، ويشمل هذا الايقاع والقافية، والتنغيم، وأنواعا عديدة من الصدى والتكرار، والقدر الكبير من شكل الشعر يدرس بالحواس، بالأذن والعين دون حدوث أية عملية ذهنية، وان الأطفال الصغار ليستمتعون بالأشياء ذات الأيقاع المميز. وقد مر معظمنا بتجربة فُتن فيها بأصوات لقصيدة دون أن يكون قد فهم معاني كلماتها فهما تاما أو ناقصا»(١).

الأصوات :

ولا حاجة للشرح فيما يتعلق بجانب (الصوت.) في الشعر من الأهمية التي تتجاوز أهمية الشكل المادي الماثل أمامنا على الورق، لا سيما اذا أفرغ هذا الشعر في لحن يلائم بحر الشعر بحيث يتحول الى (صوت.) من الغناء الأخاذ وقد كان للغناء في أيام الأمويين والعباسيين شأن كبير، كم كان مفيدا لنا من حيث سبر التاريخ، ومعرفة أحوال المجتمع، وأسلوب الفن، والذوق العام، ومن حيث دواعي علم الاجتماع، لو كانت قراءة النغمة، ومعرفة الصوت. واللحن في تلك الأيام متيسرة مثلما تيسرت. اليوم بسبب ضبط (النوتة)، والمؤسف هو أن

كل ما بقى لنا من الماضي من هذه النغمات، والأصوات، أوصاف ضبطها لنا أبو الفرج الأصفهاني كتابة في موسوعته الكبيرة الجليلة (كتاب الأغاني) أكثر مما ضبطها غيره، وهي أوصاف كان يفهمها الموسيقيون والمغنون من أبناء تلك الأجيال وعصرهم، فلما ماتوا وانقرضوا ماتت تلك (الأصوات) بموتهم ولم يحصل لنا من يستطيع أن يحل ألغازها من أوصافها التي ثبتوها على الورق كتابة، فأصبحت عندنا رطينة لا نفهم منها شيئا.

يقول أبو الفرج الأصفهاني في (الأغاني):

أخبرني اسماعيل بن يونس، قال حدثنا عمر بن شبّه، قال حدثنا حماد بن اسحاق عن أبيه، عن الهيثم بن عدي، عن حماد الراوية قال:

كتب الوليد بن يزيد الى يوسف بن عمر – وكان عامله في الكوفة – أما بعد فاذا قرأت. كتابي هذا فسرَّح اليّ حماد الراوية على ما أحب من دواب البريد وأعطه عشرة آلاف درهم يتهيأ بها – الى أن يقول حماد – وخرجت حتى انتهيت الى الوليد وهو بالبخراء، فاستأذنت عليه، فأذن لي فاذا هو على سرير ممهد، وعليه ثوبان أصفران، ازار ورداء، يقيئان الزعفران قيئا، واذا عنده (معبد) و (مالك بن أبي السرح)، و (أبو كامل) مولاه – وهؤلاءمن أساطين الغناء في الذروة.

ويصف حماد هذا المجلس وكيف غنى فيه المغنون وكان منهم (ابن عائشة) الذي شغف الوليد بغنائه، ويأتي حماد بالشعر الذي غنى به كل واحد منهم.

ويعلق أبو الفرج على هذه الأصوات. التي غنى بها (مالك) وغنى بها (ابن عائشة) واصفا موسيقاها، ونغماتها، ونبرات. أصواتها، وألحانها، وذاكرا اسم شاعرها، وملحنها فيقول عن غناء:

جلا أمية عني كل مظلمة   سهل الحجاب وأوفى بالذي وعدا
اذا حللت بأرض لا أراك بها   ضاقت عليّ ولم أعرف بها أحدا

قال أبو الفرج «**ان الغناء لابن عباد الكاتب، وهو خفيف، ثقيل**

باطلاق الوتر، في مجرى البنصر، وذلك عن اسحاق، (ثم يقول أبو الفرج) وذكر عمرو ابن بانه: «انه لعمر الوادي، وذكر حبشي: ان فيه (لمالك) لحنا من خفيف الثقيل الأول بالوسطى»!!.

ولا نظن أحدا يستطيع أن يفهم من هذا الوصف شيئا، أو يستطيع أن يغني هذا الصوت بمقتضى هذا الوصف، ويقول أبو الفرج في غناء (مالك) للوليد في ذلك المجلس الذي وصفه حماد والذي غنى فيه مالك:

أتنسى اذ تودّعنا سليمي   بفرع بشامة سقى البشام (الخ)

يقول أبو الفرج **«ان الشعر لجرير، والغناء لابن سريج، وله في هذه الأبيات ثلاثة ألحان، أحدها في الأول والرابع (أي البيت الأول من هذه المقطوعة، والبيت الرابع منها) ثقيل أول بالخنصر في مجرى البنصر عن ابن اسحاق».**

والآخر في الثاني ثم الأول (من الأبيات) ثاني ثقيل بالبنصر عن عمرو.

وعلى هذا النمط من الوصف يأتي أبو الفرج على جميع الألحان والنغمات في الأشعار التي كان يغني بها المغنون، وان ضبط (الصوت) على هذه الشاكلة لايصلح لانتقال مفهومه من جيل الى جيل، وكل ذلك لانعدام القاعدة التي يسمونها اليوم (بالنوتة) التي لم تكتشف الا في العصور المتأخرة، حتى لقد أصبح شأن هذه (النوتة) شأن سطور الكتابة، يقرأها هذا الجيل، ويسمع صوتها فهي كالتفعيلة في بحور الشعر.

النوتة :

والنوتة، أو (النوطة) كما يسميها «ناسنا» هي اشارات كتابية، بها تتغنى درجات الأصوات، من ارتفاع، وانخفاض، وذبذبات، وارتعاشات، وأي اهتزاز من الاهتزازات الصوتية التي تجمع بين مختلف النبرات على قدر ما تستطيع أن تستوعب كل آلة موسيقية، ومثلها الحروف الهجائية التي تتألف الكلمة من

صورها، وصف بعضها الى بعض، ثم يتألف من كل ذلك الكلام المفهوم، وان (النوتة) لكذلك فان من صورها المثبتة على الورق، وموضع ومكان هذه الصور يتألف الصوت، وتبرز النغمة فيتم نقلها من واحد الى آخر، ومن جيل الى جيل كالكتب والوثائق والرسائل، وكم كان مفيدا لو أن هذه النوتة كانت معروفة في العصور القديمة لكان قد تم لنا الوقوف على كيفية انشاد الشعر ونغماته وألحانه.

وتثبت هذه الاشارات الصوتية فوق خمسة خطوط أفقية متوازية، ظاهرة باللونين (الأسود والأبيض) وبها يتعين مدى الوقت الذي يستغرقه كل صوت، وكل مقطع من الأمواج الصوتية، وان الاشارات هذه تقرأ من اليسار الى اليمين جريا على الكتابة اللاتينية وقراءتها.

والمتتبع لتاريخ الأصوات، والنغمات لا يعدم وجود ما يدل على أن غير واحد وفي غير جيل واحد قد فكر في الوسائل التي يمكن التوصل بها الى ضبط الصوت، واللحن، والنغمة، وسعى، ولربما كان سعيه حثيثا في سبيل الاهتداء الى وسيلة ما ولكنه أخفق، ويبدو أن المسيحية كانت أكثر اهتماما وتفكيرا بتثبيت الألحان وتخليدها على الورق خوفا من ضياع الترتيلات الدينية، وألحان الأناشيد، فكانت أكثر جدا ونشاطا من أهل الموسيقى أنفسهم للاهتداء الى طريقة مضمونة لحفظ الأصوات بجميع لحونها، ونبراتها، ونغماتها لكي يسهل نقل الأناشيد من كنيسة الى أخرى، ويسهل انتشار هذه الأناشيد في المجتمع كله فضلا عن المجتمع المسيحي نفسه، وهي أناشيد كان يتجدد بعضها، ولم يبق على وتيرة واحدة الا ما يتعلق بالنصوص التقليدية، وهي نصوص خاصة يضمن بقاءها التواتر، ولا تحتاج الى ضبط في كتابتها، مثل ترتيل القرآن الكريم، والأذان عند المسلمين، فان طريقة الأداء فيهما قد ضمنها التواتر حسب سليقة كل قطر من الأقطار الاسلامية.

نقول ان أكبر الظن هو أن المسيحية كانت أكثر اهتماما من الموسيقيين في البحث عن الوسيلة التي يتم بها ضبط الصوت ونقله الى أقصى نواحي الدنيا، فكان أن ظهر في ميدان الموسيقى راهب ايطالي كان يشغل كرسي التدريس للموسيقى الايطالية بين سنة (٩٩٥ – ١٠٥٠م) ذلك هو الراهب كيدو أ رزّو (Guido D. Arezzo) من أبناء القرن الحادي عشر الميلادي، وقد أعطى هذا الأمر اهتماما كبيرا من نفسه، ولا يبعد أن يكون قد قضى وقتا طويلا وهو يفكر في كيفية تثبيت اللحن على الورق، وكان من نتيجة ذلك الاهتمام، ومواصلة

التفكير التوصل الى ابتداع الاشارات، الصوتية المعروفة اليوم، فسجل – أول ما سجل – على الورق ست اشارات، وضعها فوق أربعة خطوط أفقية، متوازية، فكان بهذا أول مبتكر لضبط الأصوات، على الورق كما جاء في دائرة المعارف البريطانية.

وقد سميت الأسس التي وضعها الراهب لهذا التثبيت (بالسلم الموسيقي) الأمر الذي جعل دراسة الموسيقى من حيث ضبط الأصوات، بجميع نبراتها أمرا ممكنا، وفي غاية السهولة(٢).

وخطا العرب منذ ذلك التاريخ خطوات، واسعة في تدوين الأصوات، وحفظ (السيمفونيات،) والأغاني في اشارات، يمكن تعلمها من قبل العازفين، وقد أجريت تحسينات، على (سلم الموسيقى) وأضيف الى الخطوط الأربعة خط خامس، أما الشرق، والأقطار العربية منه خاصة، فقد تأخر في الأخذ بهذا الفن بسبب تأخر المضطلعين بعلم الموسيقى، ولم يتسع للموسيقى العربية الاهتمام بهذا العلم الا في الآونة الأخيرة من السنين حين عُني العرب بدراسة الموسيقى وصارت، لها كليات،، ومعاهد، وأساتذة، ومدرسون، وعازفون وضاربون بمختلف الآلات، الموسيقية.

واذا فاتتنا هذه الوسيلة لاتفقنا عمليا على أن الشعر العربي قد ولد في حضن الغناء، أو أن الغناء قد ولد في حضن الشعر، فان لنا من التبصر في تاريخ الأدب العربي ما يدل على أن الشعر هو الغناء، والغناء هو الشعر، والا فهما قد ولدا توأمين، وان قراءة الشعر بهذه الطريقة المبسطة المرسلة التي تقرأ بها النثر انما هي طارئة وان بَعُد تاريخها، وحديثة وان كانت بعيدة العهد، ولهذا التحول أسباب يطول شرحها، ولربما تناولناها في فرصة أخرى، ومجال أوسع ودللنا على الأسباب التي عزلت الموسيقى عن الشعر عند الالقاء.

● الهوامش ●

(١) تعريب الدكتور محمد حسن عبد الله – مجلة الشعر – العدد ١٤ أبريل ١٩٧٩ – القاهرة.

(2) The world Book Encyclopedia, volume (13) New York, 1977.